نماذج توظيف العمائر الفاسية في مقصد المعاملات

–الوقف انموذجاً–

الباحث محمد احماموشي
دكتور متخصص الفقه وأصوله
أستاذ مادة التربية الإسلامية
أستاذ زائر بالمدرسة العليا للأساتذة، فاس
المغرب

ملخص البحث:

يعد نظام «الوقف» أحد الصيغ التاريخية التي ابتكرها المسلمون للتقرب إلى الله وبناء مجتمعات إسلامية وفق مقد إعمار الأرض وإصلاحها، وقد اقتبسها الغربيون ونقلوها عن الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر...أطلق عليها الغربيون لاحقا اسم «منظمات المجتمع المدني» وقد ظل يمثل نظام الوقف على مدى ثلاثة عشر قرناً صورة من أروع صور التعاون الإنساني وينبوعاً فياضاً من ينابيع الخير حتى آلت حال الأوقاف في العصور الأخيرة، ويعد هذا نظام متأصلا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم "بعد اقتسام غنيمة خيبر استشار عمر النبي –صلى الله عليه وسلم– في سهمه منها وحبسه في سبيل الله، فكانت سنة المسلمين في التحبيس على أنواع البر والإحسان، قيل: هو أول حبس في الإسلام."[1]

الكلمات المفتاحية: الوقف –المعاملات – مقاصد العمران – فاس

1-1: مفهوم الوقف ووظيفته العمرانية.

يمكن تعريف الوقف عند فقهاء المالكية بأنه "مصدر إعطاء منفعة شيء مدة وجوده، لازما بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرا"[2].وعلى الرغم من وجود عدة تعاريف أخرى للوقف تعكس الاختلاف بين فقهاء المذاهب[3]، فقد وقع الاتفاق على كونه تحبيس مال وتسبيل منفعته في طريق البر والإحسان على وجه التأبيد، مع منع بيعه أو رهنه أو التصرف فيه في غير ما وُقّف له[4].وقد شاع عند المغاربة اسم الحبوس كناية على أعمال الوقف التي ظلت محصورة في "خمس شعب أساس خصوصا في الفترة الممتدة من نهاية القرن التاسع عشر حتى غاية يومنا هذا، وهي الأوقاف الكبرى، وأوقاف الزوايا والأضرحة، وأوقاف الضعفاء والمساكين، وأوقاف الحرمين الشريفين، ثم الأوقاف المعقبة"[5].

لعب الوقف دورا أساس في توفير الرعاية الاجتماعية للفقراء واليتامى والمرضى والتخفيف من معاناتهم، واستطاع أن ينافس الأجهزة الرسمية في مواجهة الفقر والجهل والأمراض في زمن عجزت فيه الدولة الإسلامية عن تلبية كل حاجات مجتمعاتها الصحية والاجتماعية والثقافية. وقد أكدت المصادر أن فعل التضامن الاجتماعي في المدينة المغربية عموما أملته الحاجة والشدة في الأزمات والمحن والأمراض، مما جعل مجالات الوقف تتخذ أشكالا متعددة ومتنوعة. وعموما أجمع الباحثون على أن الوقف مؤسسة من المؤسسات الشرعية التي طورها المسلمون واستثمروا مواردها لترميم وصيانة الموروث الثقافي[6].

والأكيد أن أشكال التضامن المتعددة فرضت تنوعا واضحا على مستوى الفضاءات المحتضنة للوقف من مساجد وبنايات ودور للرعاية والإيواء والإطعام والتعليم. ويمكن القول في هذا الصدد، إن الوقف الإسلامي عبر تاريخ المدن المغربية قام بوظيفتين متلازمتين؛ ذلك أنه شكل الباعث الحقيقي لإنشاء وتطور العمارة التي تقوم بتأمين الخدمات المخصصة لها. وبهذا كان للوقف دور كبير في نشوء وتطور المدن نظرا للمنشآت العمرانية الكثيرة التي أقيمت بداخلها، مما أسهم في تحقيق التنمية في مجالات عديدة دينيا وثقافيا وصحيا واجتماعيا وأمنيا. فقد ذكر ابن أبي زرع الفاسي في كتابه" روض القرطاس" أن السلطان يعقوب المنصور الموحدي (ت 595): " أجرى الإنفاق على أهل المارستانات والجذمى والعميان في جميع عمله وبنى الصوامع والقناطر والجباب للماء في البرية واتخذ عليها المنازل وبنى المنازل من سوس الأقصى إلى سويقة بني مصكود وكانت أيامه زينة الدهر وشرفا لأهل الإسلام"[7].

وبناء عليه، من الواضح أنه ثمة علاقة سببية بين الوقف والعمارة، المحققة لمقصد التوحيد في شق المعاملات[8]. ولعل ما يفسر ولو جزئيا تشييد المؤسسات العلمية والصحية والإحسانية، والاهتمام بموقعها ورونقها وإتقانها، يرجع إلى انتباه المسلمين المغاربة إلى أهمية الوقف وانعكاساته الإيجابية على المجتمع، إن على المستوى الديني التعبدي أو على المستوى التكافلي الأخلاقي، بما خصصوه من وسائل واعتمادات مالية مهمة من أجل ذلك، فضلا عن ما يمكن إثماره من تماسك النسيج الاجتماعي وترسيخ فضيلة التكافل بين الناس. بل قيد الشرع الحكيم صحة الإيمان بمحبة المسلم لأخيه بما يحبه لنفسه مصداقاً لقوله صل الله عليه وسلم: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[9]. ومن نافلة الإشارة على أهمية الوقف في التنمية العمرانية ما أورده المؤرخ عبد الواحد المراكشي في مؤلفه "المعجب" بمناسبة بناء السلطان يعقوب المنصور الموحدي لمارستان في مراكش قوله: "ما أظن في هذه الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة في أعدل موضع في البلد وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض"[10].

وبهذا، تظل مؤسسة الوقف هي الإطار العام لتنمية الأصول والثوابت العمرانية، فهي تشمل الأراضي والعقارات والرباع، والدور والقصور والحوانيت والحمامات والأفران وغيرها مما يمكن أن يدر موردا، ودخلا منتظما تستعين به المؤسسة، ويكفل لها ديمومتها واستمرارها. ولذلك، "يجب أن تتجه سائر إمكانات الأوقاف نحو خطة تنمية واحدة تأخذ باعتبارها سائر الجهات، وأن تلعب استثمارات الأوقاف دورا رائدا في حجم الاقتصاد المغربي وفق خطة اقتصادية عقلانية مرنة يقوم بها المختصون. على اعتبار أن الأوقاف قوة في بنية الحضارة الإسلامية، وضرورة

اجتماعية في ميزان توازنه، فحضورها شكلا وسلوكا يفشي بذور السلم الاجتماعي ويغني حصيل التراكم الحضاري في بعده الإنساني والعمراني"[11].

2-1: نماذج الوقف الاجتماعي في تاريخ فاس.

- الأوقاف العلمية.

راهنت الأوقاف بمدينة فاس على إشاعة العلم بين الناس، فأولت اهتماما بالغا بتشييد المؤسسات العلمية من مدارس ومكتبات.

- المصحف الأكبر الذي حبسه المنصور أحمد السعدي عام 1011م[12].

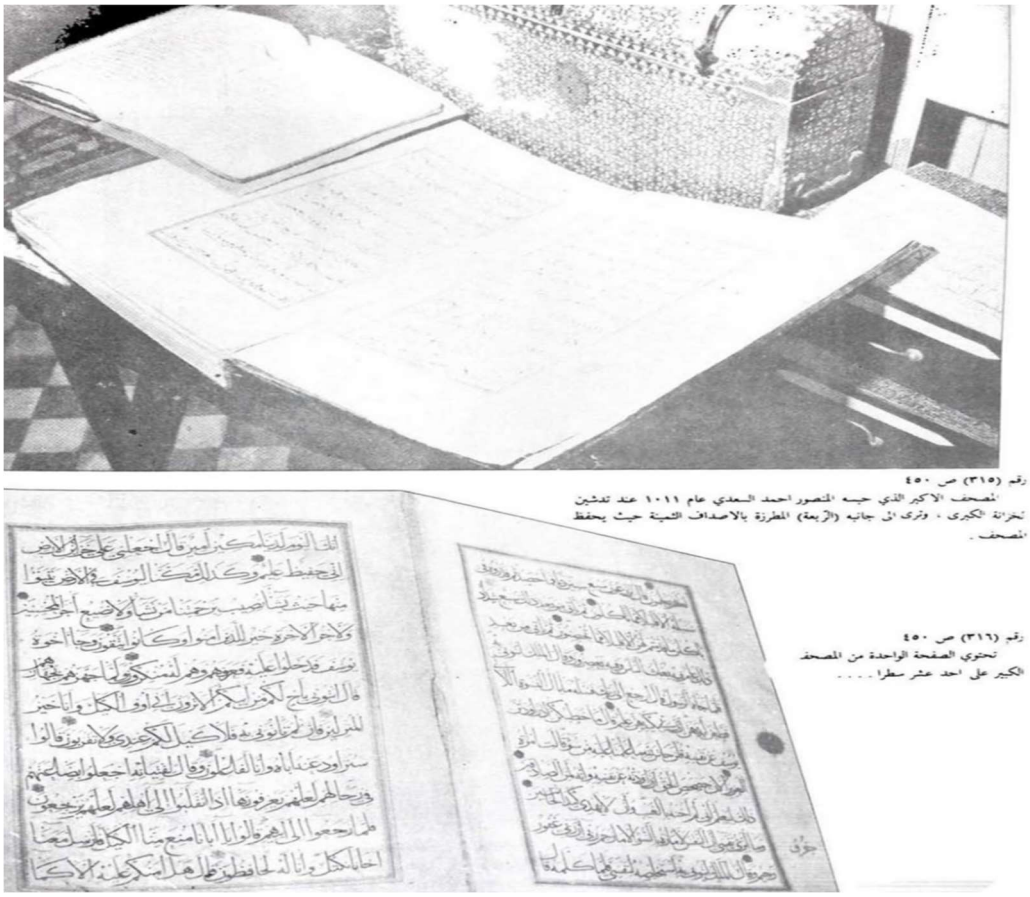

رقم (٣١٥) ص ٤٥٠
المصحف الاكبر الذي حبسه المنصور احمد السعدي عام ١٠١١ عند تدشين
خزانة القرويين الكبرى ، وترى الى جانبه (الربعة) المطرزة بالاصداف الثمينة حيث يحفظ
المصحف .

رقم (٣١٦) ص ٤٥٠
تحتوي الصفحة الواحدة من المصحف
الكبير على احد عشر سطرا . . . .

- أقدم ورقة ما تزال شاخصة من الحولات الحبسية ترجع لعام 893هـ[13].

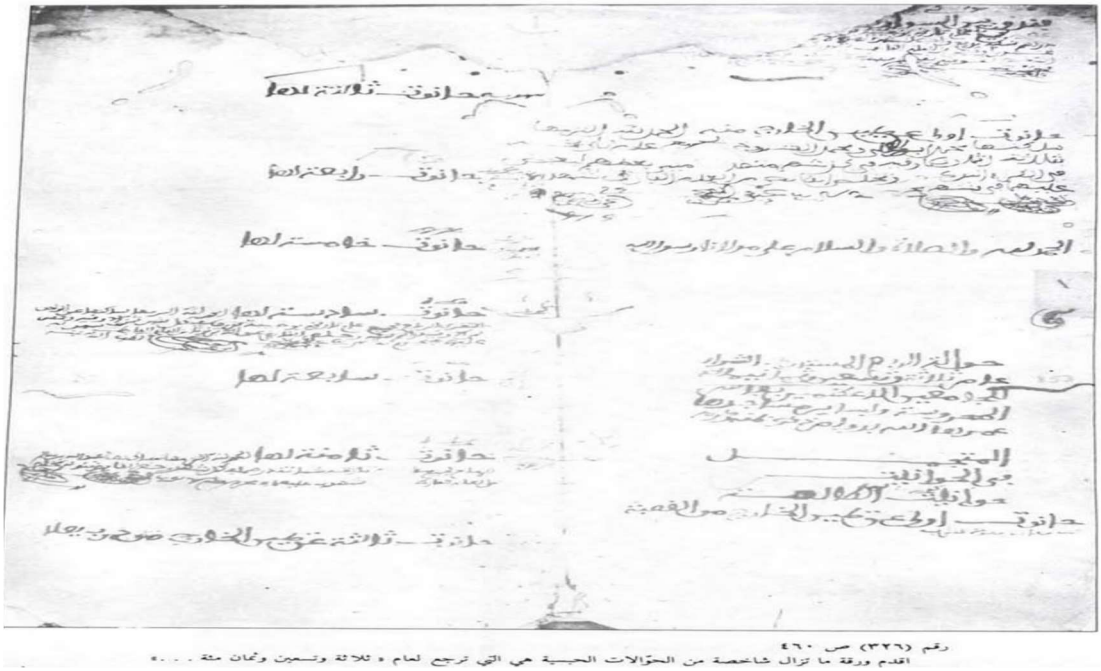

أ – المدارس.

شيدت المدارس بفضل الأوقاف في مدينة فاس وأوقفت عليها الأراضي والعقارات والأصول التجارية من دكاكين وحمامات وفنادق، وذلك لتؤدي وظيفتها العلمية عبر التاريخ. وفيما يلي أبرز المدارس العلمية التي شيدت بمدينة فاس خلال العصر المريني:

المدارس المرينية في مدينة فاس[14].

المدرسة	تاريخ التأسيس	الموقع
الحلفاويين	1280م	حي الصفارين
المدينة البيضاء	1320م	القصر السلطاني بفاس الجديد
السبعيين	1321م	بين جامع الأندلس ومدرسة الصهريج
الصهريج	1321م	جنوب غرب جامع الأندلس
العطارين	1323م	شرق سوق العطارين
الوادي	1323م	على وادي مصمودة بعدوة الأندلس
المصباحية	1345م	شمال جامع القرويين
البوعنانية	1350-1355م	سوق القصر على زقاق الطالعة الكبرى

استمر تشييد المدارس داخل مدينة فاس خلال العصر العلوي خصوصا زمن حكم المولى الرشيد، والسلطان سيدي محمد بن عبد الله، وبذل السلاطين العلويون عموما مجهودات كبيرة من أجل صيانة هذه المدارس وتخصيص الأوقاف لأداء رسالتها العلمية المنضوية تحت لواء التوحيد والعمارة.

ولم تكن المدارس تقتصر على التعليم فقط، بل كانت ملجأ للطلبة الوافدين عليها من خارج فاس. وكانت ست مدارس تستقبل هؤلاء الطلبة مطلع القرن العشرين، وهي مدرسة الصفارين، والعطارين، والمصباحية، والشراطين، ومدرسة باب عجيسة، ثم مدرسة مولاي عبد الله بفاس الجديد؛ وكانت الإقامة مجانية "لأن المدارس ملك للأحباس"[15].

- خزانة القرويين[16].

أ. الخزانات العلمية

انتشرت المكتبات الموقوفة على المدرسين وطلبتهم داخل مدينة فاس، والفضل في ذلك يعود إلى جهود السلاطين الذين كانوا يأمرون بإنشائها داخل المساجد والمدارس العلمية. وكانوا يعينون لها قيمون يسهرون على تسييرها والمحافظة على ما تزخر به من كتب وذخائر.

ومن أبرز هذه الخزانات العلمية مكتبة القرويين التي أنشأها السلطان أبي عنان المريني، التي عرفت تحسينات كبيرة على عهد الملوك السعديين والعلويين.

- خزانة مسجد باب عجيسة[17].

1-2: الوقف والرعاية الصحية.

لم تكن وظيفة الوقف إنشاء المساجد فحسب بل امتدت إلى جميع شؤون الحياة، وتعددت خدماتها الاجتماعية لفائدة شرائح مهمة داخل المجتمع، وخاصة تلك التي تحتاج إلى العون والمساعدة. ومن أبرز هذه الخدمات إنشاء البيمارستانات[18]، والمستشفيات والدور الصحية لعلاج الإنسان والحيوان أيضا. ومن أمثلة ذلك، مستشفى سيدي فرج بالعطارين بفاس الذي كان يضم المرضى والمجانين والغرباء الذين لا مأوى ولا ملجأ لهم. وقد وصف د. دومازل Dr Du Mazel هذا البيمارستان فقال: "بناؤه قديم يرجع تأسيسه إلى عهد سلاطين بني مرين وهم في أوج عزهم وعظمتهم، حيث كانوا يعاونون على نشر العلوم وتجميل المدن؛ وبنى أحدهم –وهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق – هذا المارستان لما تولى الملك سنة 685هـ/1286م، وعهد مؤسسه إدارته إلى أشهر الأطباء، ووقف عليه الحبوس الكثيرة من العقار للصرف عليه وحفظه، ولما عظم أمر البيمارستان، واتسعت أعماله أدخل عليه السلطان أبو عنان –الذي تولى الملك 766هـ– زيادات عظيمة"[19]. ذلك أنه أصبح ينزل فيه الغرباء لمدة ثلاثة أيام يطعمون وينامون فيه، علاوة على معالجة الأمراض العقلية والجسدية التي تعتبر الوظيفة الأساسية للمارستان، وذلك في ظروف جد مريحة[20].

وقد أشار الحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، الذي عاش في القرن العاشر الهجري، إلى وجود عدد مهم من الموظفين الذين كانوا يعملون داخل سيدي فرج، منهم أمناء وممرضون وحراس وطباخون وغيرهم، حيث كان كل واحد منهم يتقاضى أجرا حسنا. وهو الذي اشتغل فيه مدة عامين بوظيفة كاتب التي كانت تدرّ عليه مبلغ ثلاثة دنانير في الشهر[21]. وإضافة إلى خدمة

التطبيب، كان هذا المارستان يعتبر ملجأ لطير اللقلاق، "حتى إذا انكسر أو أصيب بأي أذى، فإنه يحمل إلى مستشفى فرج، وتصرف جرايت لمن يضمده ويداويه ويطعمه"[22].

إن المتأمل في موقع مارستان سيدي فرج بجوار محكمة المحتسب والحرم الإدريسي فضلا عن القيسارية والعطارين وعلى قرب من القرويين، ليقف حتما على أهمية المؤسسة الوقفية وحجمها في مدينة فاس ودورها في تحقيق مقصد التوحيد، و تنمية الإنسان والعمران. فعندما نستحضر مفهوم التنمية العمرانية في عصرنا الحالي القصد منه "الارتقاء بالبيئة وتوفير الاحتياجات الأساسية للسكن والعمل والخدمات المجتمعية وعناصر الاتصال وشبكات البنية الأساسية وذلك في إطار محددات المكان وضوابط القيم الاجتماعية والثقافية"[23]، يتبين أن المؤسسة الوقفية عبر التاريخ ظلت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتنمية العمرانية، وأن الهدف من إنشاء المارستان في ذلك الموقع كان هو "التسهيل على أهل البلد نساء ورجالا وصبيانا في تناول حاجياتهم والوقوف على مرضاهم وتسهيل توصلهم بالطعام والشراب على أقرب حال"[24]. ولو افترضنا أن هذه المؤسسة الخيرية كانت أبعد من هذا الموقع لحادت بطبيعة الحال عن أهدفها التنموية التي يعتبر الإنسان والارتقاء بحياته محورها الرئيسي، ولفقدت الاستمرار في أدائها لعملها بفعل التهميش الذي سيطالها مع تقدم الزمن.

- تصميم لفندق ماريستان[25].

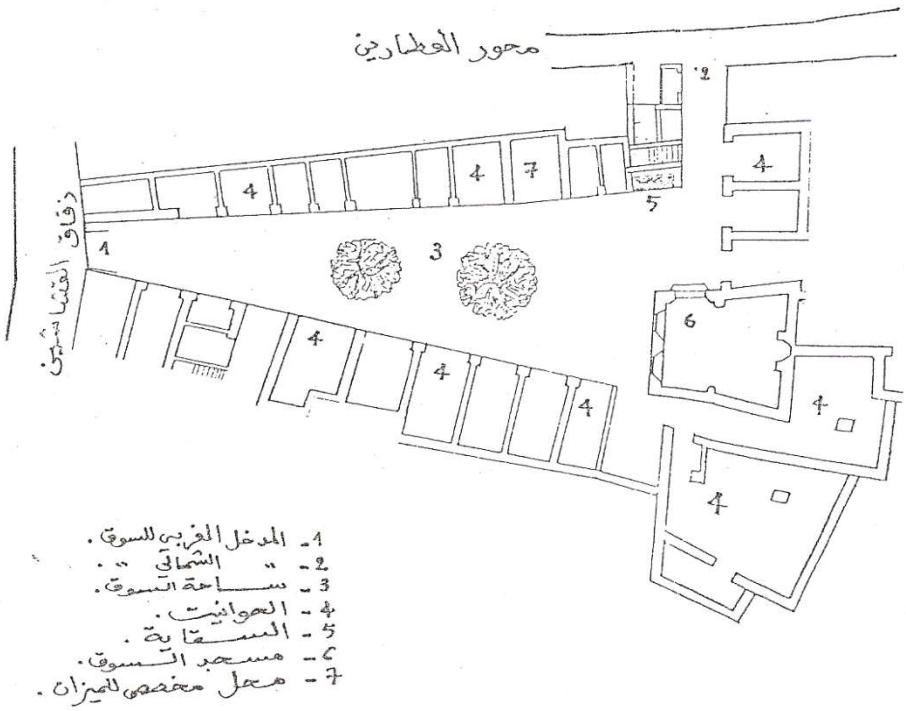

يتوفر السوق على مجالين :

– المدخل الغربي على زقاق النقاشين.

- صور لمارستان سيدي فرج بفاس[26].

شكل: أ . بطاقة تقنية.

-

- الشكل: ب. - الشكل: ج.

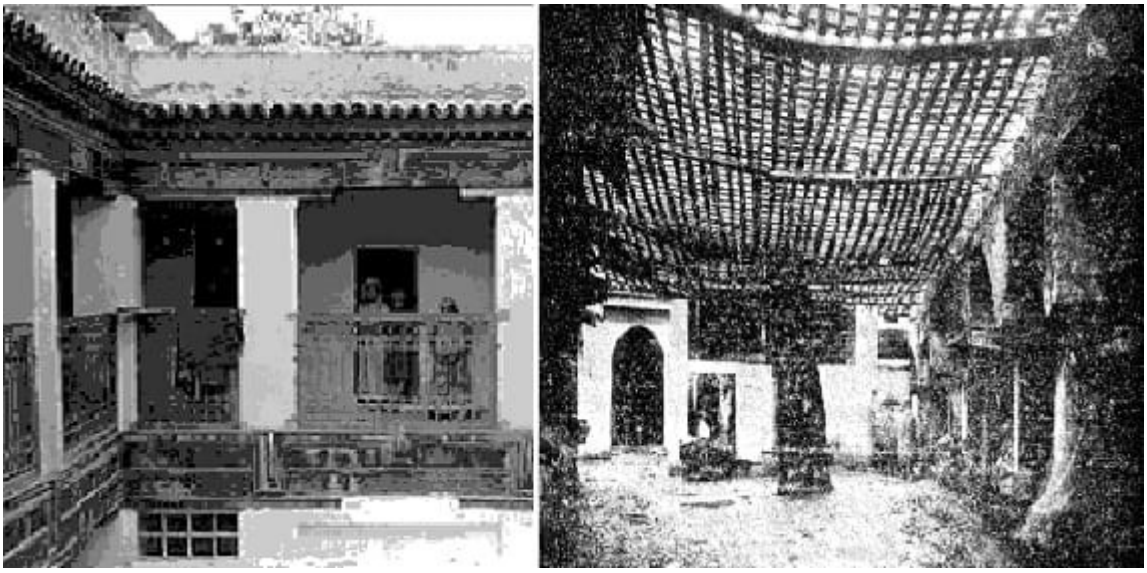

- الشكل: ج.

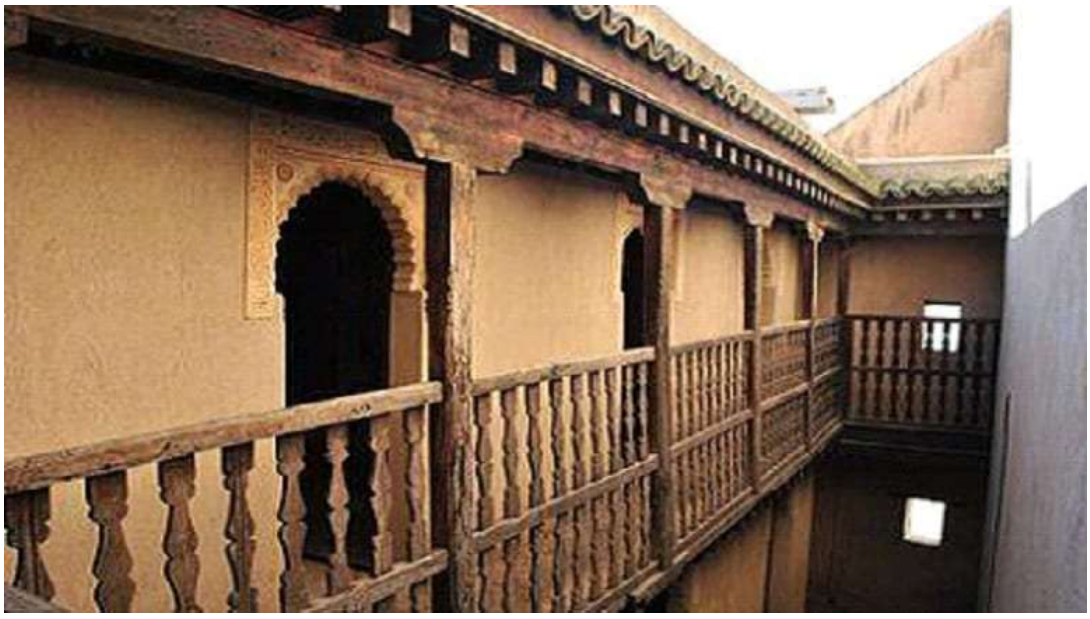

شهدت المدن المغربية أيضا إقامة مؤسسات استشفائية خاصة لعلاج المصابين من الأمراض المعدية مثل الجذام، وهو ما حدث بمدينة فاس التي شهدت تأسيس مستشفى للجذمى على شاكلة مارستان سيدي فرج، وهو "ربض يضم قرابة مائتي بيت... ولهؤلاء المجذومين رئيس كان يجمع عائدات بضع عقارات موقوفة عليهم في سبيل الله حبسها بعض الأشراف وأشخاص آخرون"[27]. والأكيد أن الجهات المحبِّسة قد انتبهت إلى ضرورة توفير حاجيات هذه المؤسسة الاستشفائية، حتى تضطلع بدورها العلاجي على أكمل وجه. وتعد مسألة اغتسال المصابين بالأمراض المعدية، عموما، الواردين على المدن وتصبين ثيابهم قبل الدخول إليها أمر في غاية الأهمية، درءا لاستفحال المرض المعدي وانتقاله إلى الأشخاص الأصحاء. وكمثال عن ذلك، شهدت مدينة فاس وقفا بذلك بمكان من قنطرة سبو عُرف بتصبين ثياب المصابين بالعدوى بالماء الساخن والصابون[28]. أما المجذومون الذين كانوا يقيمون داخل كهوف بالقرب من الوادي، حيث كانت تغسل ثيابهم وأقذارهم بنهر سبو

على عهد السلطان يعقوب المريني، فقد أمر هذا الأخير بنقلهم إلى حارة برج الكواكب خارج باب عجيسة سنة 658 هـ ليبعدوا عن التصرف في ماء المدينة "وقاية من الضرر وتطهيرا من القذر"[29].

استمر أداء المارستانات لوظائفها على عهد الدولة العلوية وتخصيص الأوقاف لأداء مهامها والقيام بشؤونها. والملاحظ أن أحباس هذه المارستانات وبالخصوص تلك المخصصة لمارستان سيدي فرج عرفت تراجعا ملحوظا قبيل الاستعمار، إذ اقتصرت على إطعام الحمقى والغرباء الوافدين على مدينة فاس. وقد تعرض الوقف الخيري خلال الاستعمار إلى تقليص دوره ومحاولات القضاء عليه، إذ أنشأت سلطات الحماية الجمعية الخيرية الإسلامية للقيام بعمل الأحباس، وكانت تراقب من طرف البلديات وتتلقى إعانات مالية[30].

2-2: الوقف والتكافل الاجتماعي.

استفادت فئة الفقراء من مداخيل الوقف، وتمكنت بفضل هذه الأخيرة من تيسير سبل عيشها خصوصا في ظروف الحاجة والعسر. "تعج مدينة فاس بالعديد من البنايات التي كانت تأوي الفقراء وتقدم لهم الطعام والكساء، كما كانت الزوايا والرباطات تقوم بهذا الدور إلى جانب وظيفتها الدينية"[31]. والأمثلة كثيرة في هذا الباب همّت الرجال والنساء والأطفال، بل والحيوان أيضا.

اهتمت أوقاف فاس عبر التاريخ بساكنة المدينة بمختلف شرائحها الاجتماعية تجسيدا لقيم التساكن والتكافل والتعاون والتراحم بين أفراد المجتمع الواحد، وتعظيما لقول الله تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾[32]. فالإنفاق في وجوه الخير والبر أمر مشروع يقع على المجتمع وأفراده، غايته أن يشعر الفرد داخل جماعته بواجب التضامن بغية الحفاظ على وحدة المجتمع.

تمكننا المصادر التاريخية من الوقوف على العديد من أشكال التضامن في الحياة اليومية داخل المجتمع الفاسي، شكلت العمارة أحد أهم قنواتها وفضاء جاذبا لكل الأطراف المتضامنة والمتضامن معها دافعها الأساسي تأمين خدمات الإطعام والإيواء والملبس والترفيه بالنسبة للطرف الأول، أو الاستفادة منها بالنسبة للطرف الثاني.

أ. خدمة الإطعام

ساهم الوقف بشكل كبير في توفير الرعاية الاجتماعية للفقراء والمعوزين والتخفيف من معاناتهم، وكذلك في تحقيق التكافل الاجتماعي الذي نادى به الإسلام[33]. ولا شك أن فعل التضامن أملته الحاجة والعوز، واتخذ تبعا لذلك أشكالا متعددة في الحياة اليومية نجد أهمها الانخراط في فعل الإطعام.

لقد تعددت الفضاءات التي وُقّفت على إطعام الفقراء والمساكين في تاريخ مدينة فاس، وانخرطت جلّ مكونات المجتمع الفاسي في تضامن الإطعام كل حسب إمكانياته المادية. ومن هذه الفضاءات الخيرية دار بدرب السعود بحي الجزيرة كانت موقوفة على الضعفاء والمساكين، وكانت من أكبر الدور بمدينة فاس ضخامة وسعة رحاب ووفرة مياه أنشئت في على عهد الدولة المرينية[34]. أيضا كان قرب باب بني مسافر[35] بفاس "عرصة موقوفة على الفقراء والمساكين حتى يستغلوها للغراسة فيها"[36]. ومن جملة ممتلكات أوقاف الفقراء والمساكين بفاس أيضا، "فرن سبع لويات الذي يعد أقدم فرن في المدينة والذي يقال إنه أقدم من جامع القرويين نفسه. كما أنشئت الملاجئ الخيرية كان يقيم فيها الشيوخ والمقعدون والعجزة ويستفيدون فيها من ثلاث وجبات يومية متميزة في أيام الجمع والأعياد، ومن حين لآخر كانت توزع على الجميع بعض الألبسة"[37]. بينما كان "الفقراء والعميان يأخذون مرتبات شهرية منتظمة كانت تقتطع من جزية اليهود أيام السلطان المريني أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق"[38].

وكما أشرنا سابقا، لم تكن وظيفة مارستان سيدي فرج بفاس تقتصر إلى إيواء المرضى والمجانين وعلاجهم، بل كان يؤمن خدمة الإطعام بشكل منتظم إلى كل من قصده من الغرباء والمحتاجين. وفي هذا السياق، "أصدر السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الرحمان سنة 1865، ظهيرا يقضي باستمرار دفع القمح والسمن والخليع إلى ضعفاء مدينة فاس الملتجئين إلى المارستان"[39]. وبهذا المعنى، كانت أحباس سيدي فرج تستعمل لإسعاف وإطعام فقراء المدينة. والجدير بالذكر أنه "سنة 1908، كان هناك أمينان وهما الحاج المكي بن عبد الله وعبد المجيد بنشقرون مكلفين بتنظيم ومراقبة الإعانات المقدمة لهؤلاء الفقراء الذين كانوا يسجلون بدار بوعلي عند العامل"[40].

ب. خدمة الإيواء

إذا كان الإطعام يرتبط في الأصل بمقصد الحفاظ على النفس، فإن إيجاد مأوى للغرباء وأبناء السبيل لا يقل أهمية خصوصا إذا ما استحضرنا الصعوبات المادية المرتبطة به. ذلك أنه من السهل تأمين المطعم من طرف المجتمع، لكن صعوبة إيجاد وعاء عقاري قار لمن لا مأوى لهم يجعل هذه الخدمة أقل حضورا على مستوى التضامن الاجتماعي.

ومهما يكن، فقد استطاعت مؤسسة الوقف عبر تاريخ مدينة فاس أن تسهم في إيواء المسنين والضعفاء داخل بنايات خصصت لهذا الغرض. ولازال قائما إلى يومنا هذا ضريح الشيخ أبي غالب الصاريوي بفاس[41]، حيث أضحى ملجأ ومأوى لأصحاب العاهات والأمراض. وكان هذا الضريح قد تم تجديد بنائه على عهد الدولة العلوية، وذلك ببناء مسجد فيه للصلاة وبيوت للمرضى وذوي العاهات، كما تم نصب سقاية ماء به[42]. أيضا، وُجدت في المدينة أربع ديار وقفية تبتدئ من دار السعود في حي الجزيرة التي أشرنا إليها سابقا، مع ثلاثة ديار جهزت كل واحدة بالفرش والأثاث منفذة بدون مقابل لسكنى المساكين والفقراء والنساء الأرامل والأيتام والمكفوفين. "كما أن مواقعها توزعت بين الأقسام القديمة لمدينة فاس: فواحدة منها بالعدوة، وأخرى بالدرب الطويل، والثالثة في حي العيون"[43]. وعلى إثر جفاف سنة 1906، عرفت مدينة فاس توافد الغرباء المعوزين، فقام أعيان المدينة بتخصيص فندقين مجاورين لباب فتوح لإيوائهم، فندق للنساء وآخر للرجال، حيث " وُقّفت عليهم النفقة يوميا خبزا وزيتا وتينا وماء. وقد بلغ عدد المستفيدين أزيد من أربعة آلاف شخص"[44]. أما الغرباء على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله فقد كانوا يستفيدون من وقف عبارة عن دار بالحرم الإدريسي بناء على أمره[45]. ونال كبار السن حظهم من الجهات المحبّسة، إذ احتضنت مدينة فاس مجموعة من الفضاءات الخاصة بهم. وعلى سبيل المثال، "شيد أبو الحسن المريني فندق أبي حباسة للشيوخ الملازمين للصلوات بجامع الأندلس[46]. بينما المكفوفون كانوا يستفيدون بدورهم من المأوى بدارين وضعتا مجانا رهن إشارتهم بمدينة فاس، إحداهما كانت أمام مدرسة السّبعيّين في حي الأندلس[47].

ج- خدمات اجتماعية أخرى

انصرف اهتمام المحبّسين داخل مدينة فاس إلى أنشطة اجتماعية أخرى عدا الإطعام والإيواء، فوقع الاهتمام بالفئات المعوزة خصوصا في المناسبات والأفراح معينين إياها على تجاوز قصور اليد، وتدبير أمور عيشها. ومن بين ذلك، أوقاف المناسبات، وأخرى تهم مؤسسة الأسرة، ومنها من اهتمت بالطير والحيوان.

كانت "دار العافية" الواقعة في حومة سبع لويات بجوار جامع القرويين، منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، تستقبل العرسان الجدد الفقراء، وتؤمن كل حاجياتهم من ملبس وأثاث ولوازم الفرح. وقد حبس أهل فاس دورا أخرى للعرائس مراعين في ذلك توزيعها على حومات عدوتي القرويين والأندلس تخفيفا لما قد يصيب أسرة الفقيرات من مشقة التنقل. فهناك دار بحومة العيون وهي ذات مرافق ومنظر وبهاء، وهي من تحبيس السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله؛ ودار في درب ولال بالحرم الإدريسي...[48] إلى غير ذلك من الديار التي تم وقفها على هذه الفئة المعوزة خلال أهم فترة من فترات العمر. والأكيد أن هذا الوقف يسهم في إدخال البهجة والسرور على نفوس العروسين وعلى أسرتيهما، وهو تكافل مادي ومعنوي في نفس الوقت، انخرطت فيه جل مكونات المجتمع الفاسي.

- تصميم للحرم الإدريسي[49].

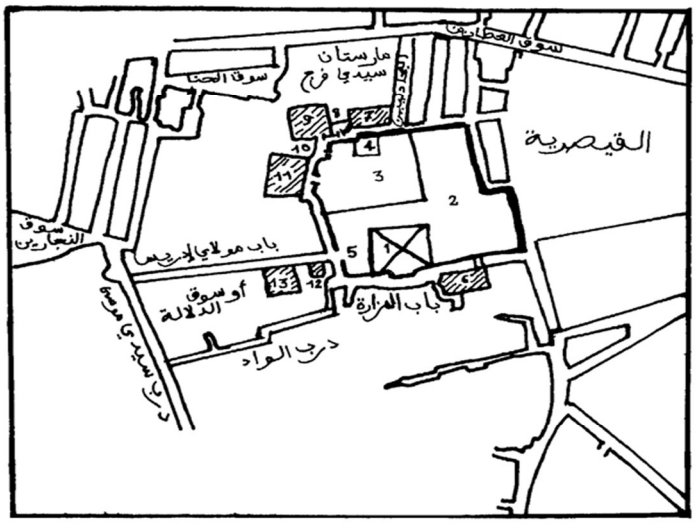

الرسم 35
الحرم الإدريسي
(حسب رسم إعدادي للشريف سيدي محمد بن إدريس الإدريسي)
1. ضريح الولي الصالح 2. قاعة الصلاة (الجامع الجديد) 3. ساحة 4. الصومعة 5. باب التومية 6. دار الخطيب 7. المجزرة 8. دار الوضوء 9. جامع المقلقين 10.. باب الطبالين 11 . دار القيطون 12. قبر للاكنزة 13. دار البلارج درب الدويرة هو الزنقة المحيطة بالحرم . ومحيط الحرم مُعلَم بخط غليظ وكذلك الجدوع التي تعترض طرق مدخل الحرم .

862

ويفهم من بعض المصادر أن العروسين كانا يقضيان في إحدى هذه الدور أسبوعا كاملا مستفيدين من كل أثاثها وألبستها وحليها التي كانت تجود بها الأسر الفاسية الموسرة، فضلا عن كونهما يقضيان يوما كاملا في نزهة في عرصة قرب باب بني مسافر كانت موقوفة خصيصا على الضعفاء والمحتاجين[50].

بالمقابل، اهتمت أوقاف فاس أيضا بالأزواج المتخاصمين، حيث خصصت ربعا موقوفا على دارين يقيم فيها الزوجين المحتكمين إلى القضاء بين مجموعة أشخاص صالحين ثقات يسند لهم القاضي مهمة الصلح بين الزوجين. وتعرف هذه الدور بدور الثقات، "توجد أحداها قبالة مسجد الشراطين بعدوة القرويين، والأخرى بدرب الحمام بزنقة الخراشفيين بعدوة الأندلس"[51].

والطريف في الأمر، أن الجهات المحبسة بالمدينة أحدثت ما يسمى "بأوقاف الأواني، وهي رباع وعقارات كان ريعها ينفق على دكانين مجهزين بالأواني الفخارية؛ الأول يوجد بزنقة بوطويل قرب باب الحفاة بجامع القرويين، والثاني بجوار باب الحفاة من جامع الأندلس. وكان يقصده

الغلمان والخدم الذين انكسرت بسببهم أواني أسيادهم، لاستبدالها بأواني جديدة دون أن يتعرضوا لبطش من يعملون لصالحهم"[52]. وهذا النوع من الوقف كان شائعا بالبلدان الإسلامية، إذ أورد ابن بطوطة خبرا طريفا بخصوص الأوقاف في دمشق جاء فيها: " مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا وقد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع الناس عليه فقال له بعضهم، اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب جزى الله من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا"[53].

وكما رأينا، تنوع الوقف الاجتماعي داخل مدينة فاس واتخذ أشكالا متعددة استفادت منها مختلف الشرائح الاجتماعية، واختلفت الفضاءات المحتضنة له من دور للإطعام والإيواء والعلاج والترفيه. والراجح حسب المصادر التاريخية أن هذه الأوقاف قد امتدت أيضا لتشمل مشاريع العناية بالطير والحيوان. فكما هو معروف توجد "دار بلارج" بالقرب من الضريح الإدريسي، وهي ملك لأوقافه، خصصت للعناية بطير اللقلاق الصغير أو الجريح أو المريض، فكان يلقى العلاج هناك على يد طبيب ويقام له عش في سطح الدار، حتى إذا أصبح قادرا على الطيران يغادر خلال مواسم الرحيل. وحسب روجي لوطورنو، "سميت هذه الدار بدار بلارج لأنها شيدت بثمن بيع قلادة من الجوهر حملها لقلاق في منقاره[54]. ولم تختصر فضائل أعمال الوقف على التحبيس لفائدة طائر اللقلاق بل شمل بعض الحيوانات أخرى، حيث "استفادت الدواب بدورها من أوقاف مدينة فاس، وكانت عبارة عن مراعي واسعة تعرف اليوم بواد فاس، وكانت موقوفة على الدواب العاجزة، أو المريضة التي كانت تترك ترعى بتلك المراعي الشاسعة وتشرب من الوادي"[55]. أما الطيور بمختلف أنواعها فكانت تشرب بأمن من السقايات العمومية المنتشرة في العدوتين، ذلك أنها كانت محمية بشبابيك حديدية تتيح لها الشرب بكل أمان. "وتوجد بالحرم الإدريسي في يومنا هذا "سقاية البراطيل" عليها شباك من حديد[56]. وفي الواقع، تعددت السقايات بمدينة فاس، وتميزت بصهاريجها المستطيلة، وواجهاتها المزخرفة بالفسيفساء الدقيقة، وسقوفها الخشبية المنقوشة. فكانت وقفا على الإنسان والحيوان والطير، تستعمل للشرب والوضوء. ونذكر على سبيل المثال سقاية ابن حيون في المخفية، ثم سقاية النجارين قرب مارستان سيدي فرج، سقاية رحبة الصفاح. ولعل وجود سقاية تعرف بسقاية الكلب في سوق الطرافين، التي بني حوضها في مستوى يسمح للكلاب والقطط للشرب بدون عناء، أكبر دليل على أن اهتمام الجهات المحبّسة بمدينة فاس تجاوز الإنسان لتشمل الحيوانات والطيور، وأن الشريعة الإسلامية أولت اهتماما برعاية الحيوان باعتباره جزء مكون لبيئة الإنسان ومحيطه العمراني.

جملة القول إن للوقف دور كبير في التنمية العمرانية، وتزكية فضائل الأعمال وهو أصل ثابت من الثوابت العمرانية ومقصد تابع لغاية التوحيد، وذلك من خلال إنشاء المساجد والمستشفيات والمدارس والمكتبات والبنايات المعدة للإطعام والإيواء وغيرها. وهو أمر بالغ الأهمية في تطوير المدن وتوسعتها. وبفضله أيضا تتحقق التنمية على جل المستويات الدينية والتعليمية والصحية والاجتماعية والأمنية، فضلا عن ما تشهده هذه المؤسسات الوقفية من قيم جمالية ومثل أخلاقية. وما أحوجنا في عصرنا الحالي إلى استعادة أدوار الوقف وإشاعة ثقافة التضامن، وتثمين العمائر الوقفية وإعادتها إلى أدوارها الإشعاعية.

الهوامش:

[1] – الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفاسي. (197/1)

[2] –الرصاع، شرح حدود بن عرفة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1992، ص/581.

[3] – من باب اغناء الموضوع فقط، فقد تطرقت للمقال سابقاً.

[4] – تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في عصر السعديين من خلال حوالات تارودانت وفاس. مصطفى بنعلة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ط/2007. 1/43-44..

5– أوقاف الضعفاء والمساكين بمدينة الرباط في القرن العشرين. ضمن وقفات في تاريخ المغرب عبد العزيز الخمليشي، تنسيق عبد المجيد القدوري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 27، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001، ص. 183.

6 – انظر بهذا الخصوص: "الوقف في الفكر الإسلامي، محمد بن عبد العزيز عبد الله"، ج 1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996. و"أوقاف مكناس في عهد مولاي إسماعيل 1082-1139هـ/1672-1727م" لرقية بلمقدم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1993.

7 – الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ابن أبي زرع الفاسي، تحقيق كارل نور نبرغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسالة، 1833، ص/200.

8 – ثبت في الدين الإسلامي الحنيف أن فضائل الأعمال جزء لا يتجزء عن الإيمان، مصداقاً لحديث رسول الله صل الله عليه وسلم. فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» (صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم:58.(63/1).

9 – صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. رقم:13. (12/1)

10 – المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2006، (ص/174)

11 – "الوقف في الفكر الإسلامي"، ضمن مجلة دعوة الحق، محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، ، عدد 230، يوليوز-غشت 1983، ص. 122.

12 – جامع القرويين. (601/2)

13 – جامع القرويين. (608/2)

14 – ماضي الوقف في المغرب: نماذج للتكافل الاجتماعي، ضمن التكافل الاجتماعي في تاريخ المغرب. عبد اللطيف الخلابي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، 2010، ص. 129.

15 – حسب ما أفاده روجي لوطورنو، كانت مدرسة الصفارين قبيل الحماية تأوي 60 طالبا، ينتمي جلهم إلى سوس وزرهون وبني زروال. أما مدرسة الصفارين فكانت تأوي ستين طالبا جلهم ينحدرون من طنجة والعرائش والقصر والقبائل المجاورة. بينما مدرسة باب عجيسة كان يقطنها طلبة من جبالة وعددهم يتراوح بين 40 و60 طالبا. وكانت المدرسة المصباحية تستقبل 140 طالبا قدموا من مناطق مراكش، والحوز، وعبدة، ودكالة والشياظمة. في حين كانت مدرسة الشراطين تأوي 150 طالبا، أغلبهم جزائريون وفيلاليون، وريفيون، وآخرون ينحدرون من المغرب الشرقي؛ (ينظر: فاس قبل الحماية لروجي لوطورنو، 2/667-668).

16 – تصوير شخصي.

17 – تصوير شخصي.

18 – البيمارستان كلمة أصلها فارسي تعني المستشفى أو محل المرضى، تداولتها المصادر الإسلامية عند اختلاطهم بالفرس في بلاد العراق؛ م الوقف في الفكر الإسلامي، حمد بن عبد العزيز بنعبد الله، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1996، ص.1/145.

19 – تاريخ البيمارستانات في الإسلام، أحمد عيسى، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط. 2، 1981، 1/276.

20. كان لهذا المارستان وقف يخصص للموسيقيين الذين كانوا يزورونه أسبوعيا: مرة أو مرتين، ليقدموا لنزلائه نغمات موسيقية مناسبة؛ ينظر: "مؤسسات خيرية وإحسانات مادية" محمد المنوني، ضمن مذكرات من التراث المغربي، Nord organisation، الرباط، 1985،(73/3).

21 – وصف إفريقيا، الحسن بن الوزان ، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص/234.

22 – مؤسسات خيرية وإحسانات مادية" محمد المنوني (المرجع السابق) ص. 73.

23 – التخطيط العمراني: مبادئ، أسس، تطبيقات، شفق الوكيل، القاهرة، 2006، ص/10.

24 – الملاجئ الخيرية الإسلامية في الدولة الموحدية والمرينية بالديار المغربية، محمد عبد الحي الكتاني، ضمن المجلة الزيتونية، ، تونس، يونيو 1939، الجزء/6، المجلد 3، ص.21.

25 – funduk al-maristan p247équipement éducation

26 – مصدر الصور الشابكة العنكبوتية:

www//lhttps://ouedaggai.wordpress.com/2017/05/23/le-maristane-de-sidi-frej

[27].–الوقف في الفكر الإسلامي"، ضمن مجلة دعوة الحق، محمد بن عبد العزيز بن عبد الله.ص/151.

[28] – نفسه ص/157.

[29] – نفسه، ص/151–152.

[30] – فاس قبل الحماية، روجي لوطورنو، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص. 373/1

[31] – الوقف الإسلامي مجالاته وأبعاده، أحمد الريسوني، دار الكلمة، القاهرة، 2014، ص/39.

[32] – الحديد/7.

[33] – المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الحبيب الجنحاني، تونس، 1978، ص. 92. –بتصرف–

[34] – الملاجئ الخيرية، محمد عبد الحي الكتاني، ص. 21.

[35] باب سيدي بوجيدة حاليا.

[36] – الوقف، محمد بن عبد العزيز بنعبد الله، ص. 132.

[37] – "نصيب المرأة والطفل في التكافل الاجتماعي بمدينة فاس من خلال الأوقاف والأعراف"، محمد اللبار، ضمن التكافل الاجتماعي في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، 2010، ص. 118.

[38] – الأنيس المطرب، ابن أبي زرع الفاسي، ص/199.

[39] – نصيب المرأة والطفل في التكافل، محمد اللبار. ص/ 119.

[40] – فاس قبل الحماية، روجي لوطورنو، ص/373.

[41] – هو سيدي علي بوغالب، هو من نسل الإمام ادريس الأزهر مؤسس مدينة فاس. نزل أحد أجداده مدشر صاريوة من قبيلة بني يازغة، ثم انتقل جده جمال منها إلى مدينة فاس حيث استقر بحارة صاريوة التي كانت مستقرا للصاريويين اليازغيين الوافدين على المدينة (تعرف اليوم بالقليعة) . والراجح أن سيدي علي ابي غالب عاش قبل مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، وعاش طفولته فقيرا تحت حضانة أمه التي دفعته إلى تعلم الحجامة وعلاج الجراح والقروح على يد بعض المماليك العلوج. وبعد وفاته ظهرت للناس بركته فقصدوا ضريحه للتبرك والاستشفاء. ومع مرور الزمن صار ضريحه ملجأ للغرباء والفقراء. (وقد أشتر إلى ذلك محمد اللبار من خلال كتابه نصيب المرأة والطفل في التكافل الاجتماعي)

[42] – الملاجئ الخيرية، محمد عبد الحي الكتاني، ص/21.

[43] – مؤسسات خيرية، محمد المنوني، ص/77.

[44] – نصيب المرأة والطفل في التكافل، محمد اللبار، ص 120.

[45] – الحالة الاجتماعية بفاس في القرن 12 الهجري من خلال الحوالة الإسماعيلية، عبد الحق ابن المجذوب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق، الرباط، 2006، 59/2

[46] – ماضي الوقف، عبد اللطيف الخلابي، ص. 134.

47 - Augène Aubin, Le Maroc d'aujourd'hui, Librairie Armand Colin, Paris, 1904, pp. 276-277.

[48]– انظر بهذا الخصوص: "دور العرايس بمدينة فاس"، محمد بن عبد الجليل، ضمن معلمة المغرب، العدد 24، السنة 2008، ص. 138–139.

[49] – فاس قبل الحماية. روجي لوطورنو.ص/862.

[50] – "دور الأوقاف المغربية في التكامل الاجتماعي عبر عصر بني مرين"، محمد المنوني، ضمن مجلة دعوة الحق، عدد 230، يوليوز–غشت 1983، ص. 30. – بتصرف–

[51] – نصيب المرأة والطفل في التكافل، محمد اللبار، ص/116.

[52] – فاس عاصمة الأدارسة، محمد المنتصر الكتاني، دار الحديث الكتانية، الدار البيضاء، ط 2، 2022، ص/49.

[53] – تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ابن بطوطة، تحقيق عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم بيروت. ط/1 1987م (120/1).

[54] – فاس قبل الحماية، روجي لوطورنو،2/ 861.

[55] – فاس عاصمة الأدارسة، محمد المتنصر الكتاني. ص/51.

[56] – نصيب المرأة والطفل في التكافل، محمد اللبار. ص/ 124.